﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف 143]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبْـطُ بين المواعَدةِ وإتمامِ الميقات، وبين نفَحاتِ الوحْيِ والمُناجاةِ في طُورِ سَيناءَ

ولما ذكر سبحانه مواعدةَ موسى واحتياطَه ﷺ في إصلاح قومه، شرحَ أمْرَهَ حال المواعدة وحالهم بعد غيبتِه، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾[2]: (كلم) أصلان: أحدهما: يدلُّ على نطق مُفهِمٍ، وهو: الكلام[3] المُدرَك بحاسَّةِ السَّمْعِ، فالكلام يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[4]. وتكلَّم: تحدَّث[5]. والكلام: القولُ، وكلَّمته: أَوصلتَ إليه ما في نفسي بالصَّوت[6]. وبذا يكون معنى اللَّفظة بَيِّنًا في تكليم اللّهِ موسى، مع لِحَاظِ صدوره بكيفيَّةٍ يشاؤها الله تعالى، ويعلمها وحده؛ إذ كلامُ اللّهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ باعتبارِ أصلِ التكلُّم، وفِعليَّةٌ باعتبارِ آحادِه، مثل هذه الواقعةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) تم تناول مادة هذه اللّفظة في الآية الكريمة [137] مفردة (كَلِمَة)، وأُعيد شرحها هنا بإيجاز لاختلاف صيغة اللفظين.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (كلم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كلم).

2) ﴿أَرِنِيٓ﴾: (رأي) أَصْلٌ يَدُلُّ على نظر وإبصار بِعَيْنٍ أو بَصِيرَةٍ[1]. ورأيتُه رَأي العَيْن، أَي: حَيث يَقَع البَصَرُ عَلَيْهِ[2]. وتراءى لي الشَّيء، أي: ظَهَرَ حتَّى رأيتُه[3]. والرُّؤْيَة: إدْراكُ المَرْئي، وذلكَ أَضْرُبٌ بحَسَبِ قُوَى النَّفْس: أوَّلها: (النَّظَرُ بالعَيْنِ) الَّتِي هِيَ الحاسَّة وَمَا يَجْرِي مجْراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكر، والرابع: بالعقل[4]. وبالرُّؤْيَة البصرية جاء جمهور ما في القرآن من التَّرْكِيب[5]. وعليه فالرُّؤْيَة المرادة في الآية الكريمة من إبصار العين، وإدراك المرئيِّ.

3) ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾: (قرر) أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَرْدٍ، أي: قَرٍّ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ[6]. وقرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصلهُ من القُرِّ، وهو البَرْد، لكونه يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركة[7]. ومن الأصل الآخر وهو: التَّمَكُّنُ، يُقَالُ: قَرَّ، وَاسْتَقَرَّ[8]. وَصَارَ الْأَمر إِلَى قراره ومستقرِّه: تناهى وَثَبت[9]. وبمعنى الثَّبات هذا (استقرَّ). وكلٌّ (مستقرٍّ) بفتح القاف مصدرًا أو مكان استقرار، وبكسرها اتِّصافًا بالاستقرار[10]. وهو معنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿تَجَلَّىٰ﴾: (جلي) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقِيَاسٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ انْكِشَافُ الشَّيء وَبُرُوزُهُ[11]. فأصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظاهر، يقال: أجليْتُ القومَ عن منازلهم، فجلَوا عنها، أي: أبرزْتُهم عنها، ويقال: جلاه، وأمرٌ جليٌّ: واضحٌ. وتقول: أَجْلِ لنا هذا الأمرَ، أي: أوضِحْهُ[12]. وقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾. أي: ظَهَرَ، وبَانَ، وقال الحسن: تجلَّى، أي: بدا للجبل نُورُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأي).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (رأى).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رأى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(7) الرّاغب، المفردات: (قرر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قر).
(9) ابن سيده، المحكم: (قرر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلو).
(12) الخليل، العين: (جلو).

العَرش[1]. جلا الشَّيءُ، والأمرُ وانجلى وتجلَّى بنفسه أو بغيره وجلاه فتجلَّى؛ إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتيٍّ أو إضافي أو خفاءٍ على مجتليه وطالبِه[2].

5) ﴿دَكًّا﴾: (دكّ) أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَطَامُنٍ وَانْسِطَاحٍ، وَمِنْهُ الْأَرْضُ الدَّكَّاءُ: وَهِيَ الْأَرْضُ الْعَرِيضَةُ الْمُسْتَوِيَةُ، وَمِنْهُ النَّاقَةُ الدَّكَّاءُ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا[3]. والدَّكُّ: كَسرُ الْحَائِط والجبل[4] وهدْمُهما، ودكَّ الأَرْض دكًّا: سوَّى صعودَها وهبوطَها، ودكَّ التُّرَابَ: كبسه وسوَّاه[5]. والدَّكُّ: الأرضُ اللَّينة السَّهلةُ، ودُكَّتِ الأرضُ، أي: جُعلت بمنزلة الأرض اللَّينة[6]. فالدَّكُّ هو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخل غائرًا ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[7]. وبه تُفَسَّرُ اللَّفظة في الآية الكريمة.

6) ﴿وَخَرَّ﴾: (خرّ) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ اضْطِرَابٌ وَسُقُوطٌ مَعَ صَوْتٍ[8]. فأَصلُه سُقُوطٌ يُسمَع مَعَه خريرٌ، والخريرُ يقال لصوت الماء والرِّيح وغير ذلك ممَّا يَسقط من علوٍّ[9]. ثمَّ كَثُرَ حَتَّى استُعمِل في مُطْلَقِ السُّقُوط[10]. فخَرَّ: سقط، ووَقع، وهوى من علوٍّ إِلَى سفلٍ، وقيل: خَرَّ: مَاتَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجل إِذا مَاتَ خَرَّ[11]. ودلالتهُ على لفظة ﴿وَخَرَّ﴾ في الآية الكريمة بعيدٌ – واللّه أعلم – والمعنى الأنسبُ ما ذُكر قبلُ من معنى السُّقوط المصاحب للصَّوتِ سقوطًا بقُوَّةٍ واسترسال، وتكرارٍ في الإلقاء لتسيُّبِ أثنائه[12].

7) ﴿صَعِقًا﴾: (صعق) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى صَعْقَةٍ وَشِدَّةِ صَوْتٍ[13]. والصَّعِقُ: المغْشِيُّ عليه. صَعِق صَعقًا: غُشِي عليه من صَوْتٍ يسمعه أو حِسٍّ أو نحوه[14]. وقيل: صَعِقَ، إِذَا مَاتَ،

(1) الرّاغب، المفردات: (جلو).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دك).
(4) الخليل، العين: (دك).
(5) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(6) الرّاغب، المفردات: (دكك).
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خر).
(9) الرّاغب، المفردات: (خر).
(10) الزّبيدي، تاج العروس: (خر).
(11) ابن سيده، المحكم: (خر).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(14) الخليل، العين: (صعق).

كَأَنَّهُ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ[1]، واستُبعِد هذا المعنى في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فَإِنَّمَا هُوَ غشْيٌ لَا موت، لقَوْله تَعَالَى بعد هَذَا: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وَلم يقل: فَلَمَّا نُشِرَ؛ لأنَّه يُقَال للَّذي غُشِي عَلَيْهِ وَالَّذِي يذهب عقلهُ: قد أَفَاق[2]، ومن هنا فمعنى ﴿صَعِقًا﴾ في الآية الكريمة مغشيًّا عليه، وهو يناسب لفظَ الإفاقة كما ذُكِرَ.

8) ﴿أَفَاقَ﴾: (أفق) أَصْلٌ وَاحِدٌ عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ[3]. والإفاقة بلوغ نهاية المغشيِّ عليه؛ فكلُّ مغشيٍّ عليه إذا انجلى عنه عارض غيبوبته؛ أفاق واستفاق[4]. والاستفاقةُ: استفعالٌ، من أفاق إذا رجع إلى ما كان قد شَغَلَ عنه، وعاد إلى نفسه، ومنه: إفاقةُ المريض، والمجنون، والمُغْشَى عليه، والنائم[5]. فالإفاقةُ رجوعُ العقلِ والفهم إلى الإنسان بعد ذهابِهما بسببٍ من الأسباب[6]. فيصحو، وينجلي العارضُ عنه[7].

9) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسْبِيحُ: تنْزيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَليق به، أي: أُنَزِّهُك يَا ربُّ من كلِّ سُوءٍ وأُبرِّئُك، وأصْلُه: المَرُّ السَّريعُ في الماء، وفي الهَواء، وفي عبادة اللّه تعالى، ثم جعل التسبيح عامًّا في العِبَاداتِ قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نِيَّة[8]. وغالبُ ما في القرآن من التَّرْكِيْب تُفسَّر فيه (سَبَّحَ)، وتصْريفُها: بالتَّنْزِيهِ والبَراءَة من أنْ يُنسَب إليه تعالى ما لا يَلِيْقُ به: كالشَّريك، أو الولَد، أو نحوه، وأنْ يَخْلقَ شَيئًا بَاطِلًا، وأن يُرَى بالبَصَرِ، وأنْ تَعْلَمَ ملائكتُهُ مَا لَمْ يُعَلِّمْهُمْ إيَّاه، وأن يَخْفَى عَلَيْهِ مَكْرُ شَرٍّ، وأنْ يَتَخَلَّفَ وَعْدُه[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لما جاء موسى عليه السلام لميقات اللّه تعالى، في الوقت المحَدَّدِ وهو تمام أربعين ليلة، ونال فضيلةَ تكليمِ اللّه تعالى له بدون واسطة، فسمع ما لم يكن يسمَعُ قبل ذلك، من وَحْيِ اللّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(2) الأزهريّ، التّهذيب، وابن سيده، المحكم: (صعق)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/110.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفق).
(4) الخليل، العين: (فوق).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (فوق).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(8) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).

وأمره ونهيه، استشرفَ لرؤيةِ ذات ليس كمثلها شيءٌ من الذَّوات، ولا في صفاتهِ التي منها كلامُه ﷻ شيءٌ من الصِّفات، طلب إلى الله تعالى أن يمنحَهُ شرفَ رؤيته، ولكنَّ الله تعالى أعلمه بعدم إمكان ذلك، بقوله: لن تراني، أي: لن تقدرَ على رؤيتي في الدُّنيا، ولكي يخفِّفَ عليه ألمَ الردِّ – وهو كليمُه الذي قال له في أوَّل العهد بالوحي إليه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: 41] – أراه بعينيه ومجموعِ إدراكه من تجلِّيه للجبل بما لا يَعْلَمُهُ سواه أنَّ المانعَ من جهته هو، لا من الجود الرَّبَّاني، طلب إليه أنِ انظر إلى الجبل، فإن استقرَّ مكانه إذا تجلَّيتُ له؛ فسوف تراني، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله مستويًا بالأرض، وسقط موسى مغشيًّا عليه، فلما أفاق من غَشْيته؛ نزَّه الله وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب، وأقرَّ بأنَّه أولُ المؤمنين بالله من قومه[1].

خُضوعُ موسَى للميقاتِ، وحُظوتُه بالتَّكْليمِ، دونَ النَّظرِ إلى العزيزِ الحكيمِ

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّه لا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشؤون الإلهيَّة قبل أنْ يُعلمها اللهُ إيَّاه، وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114][2]. وتهدي الآيةُ الكريمة أيضًا إلى أنَّ من الإصلاح الأخذَ بالحزم أحيانًا، والأخذَ بالرِّفق، والتَّسامحِ أحيانًا أخرى، ومن الإصلاح عقابُ مستحقِّي العقاب، ومكافأةِ مستحقِّي الثَّواب، وإكرام مستحقِّي الإكرام.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الحرفِ (لمّا) على جعْلِ المجيء شَرطًا للتَّكْليمِ:

﴿وَلَمَّا﴾ اسميَّةٌ شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، وجعل مجيءَ موسى للميقات، وتكليمُ اللهِ إيَّاه شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه كالمعلوم، وجعل الإخبارَ متعلِّقًا بما بعد ذلك، وهو اعتبارٌ بعظمةِ الله وجلالِه، فكان الكلامُ ضربًا مِن الإيجاز بحذف الخبرِ عن جملتين؛ استغناءً عنهما

مجيءُ موسَى في وقتِه، أمرٌ حاصلٌ غيرُ مُحتاجٍ للإخبارِ عنه

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/111، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بأنَّهما جُعلتا شرطًا لـ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه جعلَ مجيءَ موسى في الوقت المعيَّن أمرًا حاصلًا غيرَ محتاجٍ للإخبارِ عنه، للعلم بأنَّ موسى لا يتأخَّر ولا يتركُ ذلك، وجعل تكليمَ الله إيَّاه في خلال ذلك الميْقَات أيضًا حاصلًا غير محتاج للإخبار عن حلوله، لظهور أنَّ المواعدةَ المتضمِّنةَ للملاقاة تتضمَّن الكلام؛ لأنَّ ملاقاةَ اللهِ بالمعنى الحَقيقيِّ غيرُ ممكنةٍ، فليس يحصلُ من شؤون المواعدةِ إلا الكلامُ الصَّادر عن الله تعالى وإرادته وقدرته[1].

عِلَّةُ وُرودِ الفعْلِ (جاءَ) وليس (أتَى):

بيانُ المشقَّةِ الّتي واجَهها موسَى عليه السلام في رِحلَتِهِ إلى جبلِ الطّورِ

سببُ استخدامِ الفعل (جاء) وليس (أتى) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أنَّ الفعلَ (جاء) دالٌّ على المشقَّة والصعوبة التي واجهها موسى عليه السلام في رحلته إلى جبل طور، حيث كان يسير في الظَّلام والبَرْد، ولا يدري ما مصيرُه، ولا يعرف مكانَ النار التي رآها: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: 10]، ويشير إلى المفاجأةِ والدَّهشة التي شعر بها موسى عندما سمع صوتَ ربِّه يخاطبُه من شجرة في الجبل، وأخبره بأنَّه اختاره نبيًّا ورسولًا: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 30]، أمَّا الفعل (أتى)؛ فيدلُّ على السُّهولة واليسر في المجيء إلى شيء أو شخص، ولا يحمل معاني المشقَّة والدَّهشة التي تتطابق مع حالة موسى.

كما أنَّ استخدام الفعل (جاء) يوافق السّياقَ القرآنيَّ الّذي يصف حالةَ موسى بعد أن كلَّمه ربه، وطلب موسى عليه السلام إلى ربِّه أن يراه، فأجابه ربُّه بأنَّه لا يستطيع أن يراه، وأمره بأن ينظرَ إلى الجبل، فإذا استقرَّ مكانه؛ فسيراهُ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله دكًّا، وخرَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/89.

موسى صَعِقًا، فهذا يدلُّ على عظمة الله تعالى وقدرته وجبروته، وعلى ضعف موسى وحاجته، فالفعلُ (جاء) يتناسَبُ مع هذا المعنى، ويعبِّر عن حالة المشقَّة والصّعوبة التّي واجَهت موسى ﷺ.

نُكتةُ تَوجيهِ معنَى اللّامِ، في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾:

تـنـوّعُ مـعـانِي الـحـروفِ، يـدلُّ عـلـى سَـعـةِ اللّغةِ، وحِكمةِ بيانِ التّركيبِ

اللّام في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ للاختصاص، فكأنَّه قيل: واختصَّ مجيئُه بميقاتنا، كما تقول: أتيتُه لعشرٍ خلوْنَ من الشَّهرِ[1]. وجعلها ابن هشام بمعنى عند، وجعل ذلك من معاني اللّام، وهو أظهر، والمعنى: فلمَّا جاء موسى مجيئًا خاصًّا بالمِيْقَات، أي: حاصلًا عنده لا تأخيرَ فيه، كقَوْله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]، وفي الحديث سُئِل رسولُ الله ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلَاةُ لوقتها»[2]، أي: عند وقتها، ويجوز جعْلُ اللّام للأجل والعلَّة، أي: جاء لأجل ميقاتنا، وذلك لتضمُّن المِيْقَاتِ معنى الملاقاة والمناجاة، أي: جَاء لأجْلِ مُناجاتنا[3]. وحكمةُ البيانِ الّذي تؤدِّيه لام الاختصاص هنا، على تقدير: (واختصَّ مجيئُه بميقاتنا)، تبيانُ كمال انقياد موسى ﷺ، بحيثُ لا يتقدَّم مجيئُه على ذلك الوقتِ، ولو مُدَّة يسيرةً، ولا يتأخَّر[4].

دَلالةُ ضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه:

إشـعـارٌ بقيمةِ مُـنـاجـاةِ مـوسَى ربَّه، حيثُ كلّمَه تكلِيمًا

يتحدَّثُ الله ﷻ عن نفسِه بضمير المتكلِّم العظيم، إشعارًا بقيمة هذه المقابلة الجلَيْلَة التي كرَّم الله بها موسى ﷺ فكلَّمه فيها تكليمًا مباشرةً دونَ واسطةِ رسولٍ من الملائكة ينقل له كلامَ رَبِّه.

بَلاغةُ الالْتفاتِ في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ﴾:

التفتَ من المتكلِّم إلى الغائب بيانًا لمقام الإكرام، والتَّشريف

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (2782)، ومسلم، الصحيح، برقم: (85).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(4) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/494.

بيانُ مَقامِ الإكرامِ والتَّشريفِ، في ذلك القُرْبِ السَّنِيِّ اللّطيفِ

بالتَّكْلِيم من غير واسطةٍ، وصوغُه بلفظ المَاضِي للدَّلالَة على تحقُّق وقوعه، ورسَّخ هذا الإكرامَ التعقيبُ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ التَّكْليمِ على طريقِ المجازِ:

تناسُبُ كيفيَّتِهِ إرادتَه تعالى، وعِلْمَه، وحِكْمَتَه

إسنادُ التَّكْليم إلى الله مجازٌ مستعملٌ في الدَّلالَة على مراد الله تعالى بألفاظٍ من لغة المخاطَب به بكيفيَّة يوقِن المخاطَبُ به أن ذلك الكلامَ من أثَر قدرةِ الله على وَفْقِ الإرادة ووفق العلم، والحكمة، ونسبتُه إلى الله أنَّه صادر بكيفيَّةٍ غيرِ معتادةٍ لا تكون إلَّا بإرادة الله أنْ يخالفَ به المعتادَ تَشْريفًا له[2].

سِرُّ العُدولِ من أُسلوبِ الوصْلِ إلى أُسلوبِ الفصْلِ:

مجيءُ الكلامِ على طريقِ المحاوَرةِ العَطِرَةِ

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾ هو جوابُ ﴿وَلَمَّا﴾ على الأظهرِ، فإن قدَّرنا الواوَ في قَوْله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ زائدةً في جواب ﴿وَلَمَّا﴾ كان قَوْلُه: ﴿قَالَ﴾ واقعًا في طريق المحاورةِ، فلذلك فصلَ[3]. وفَصَل أيضًا في قَوْله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنَّه واقعٌ في طريق المحاورةِ أيضًا[4]، فهي مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: فماذا قال الله تعالى حين قال موسى ذلك، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تُطيقَ رؤيتي، وأنتَ في هذه النَّشأة، وعلى الحالة التي أنتَ عليها في هذه الدنيا، فنفيُ الرُّؤْيَة منصَبٌّ على الحالة الدُّنيوية[5].

سِرُّ جَعْلِ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، شَرطًا للأداة ﴿وَلَمَّا﴾:

الإيذانُ بأنَّ التَّكْليمَ هو الّذي أطْمعَ موسَى في حُصولِ الرُّؤْيَةِ

لما كلّمه وخصَّهُ بهذه المرتبة؛ طمَحَتْ هِمَّتُه ﷺ إلى رُتبةِ الرُّؤْيَة وتشوَّق إلى ذلك، فسألَ ربَّه أن يريَهُ نفسَه[6]. وسؤالُه رؤيةَ الله تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/450.

تطلُّعٌ إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهيِّ؛ لأنَّه لما كانتِ المواعدةُ تتضمَّنُ الملاقاةَ، وكانتِ الملاقاةُ تعتمدُ رؤيةَ الذَّات وسماع الحديث، وحصل لموسى ﷺ أحدُ ركني الملاقاة وهو التَّكْليمُ، أطمَعه ذلك في الرُّكن الثاني، وهو المشاهدة، وممَّا يؤذن بأنَّ التَّكْليم هو الذي أطمعَ موسى في حصول الرُّؤْيَة؛ جعْلُ جملة ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّ ﴿وَلَمَّا﴾ تدلُّ على شدَّةِ الارتباط بين شرطِها وجوابِهَا، فلذلك يكثر أن يكون علَّةً في حصول جوابها، هذا على جعل ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ عطفًا على شرطِ لمَّا، وليس جوابَ لمَّا[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ:

التَّكْليمُ يتعلَّقُ بخصائصِ صِفاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِعبادِهِ

جاء في قَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ وضْعُ الاسم الظَّاهرِ (ربّ) موضعَ الضَّمير، وعدَلَ عنه، ولم يقل: (وكلَّمناه)؛ للدَّلالَة على أن هذا التَّكْليم يتعلَّق بخصائص صفات ربوبيَّةِ اللّه لعباده، التي تستدعي أن يعبدوه وحْدَه إلهًا لا شَريكَ له، في حدود شرائعِهِ، وأحكامه، ووصاياه، وبياناتهِ التي نزَّلها إليهم. والإظهارُ فيه الإكرامُ بالتعقيبِ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[2].

بَلاغةُ الحذْفِ في ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾:

المحذوفاتُ فيها إشارةٌ إلى لَهْفَةِ موسَى، وشِدَّةِ تَشوُّقِه للقاءِ ربِّه

وأوَّلُ المحذوفات: حرفُ النِّداء(يا) الدالِّ على القُرب، وحذفهُ دلالةٌ على مدى شعور موسى ﷺ من قُرب اللّه تعالى منه، فـ"أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان"[3]. وثانيها: الياء من ربِّ تخفيفًا، وثالثها: الحرف المعتلُّ (الياء) من فعل الأمرِ المجزوم الدالِّ على الدُّعاء ﴿أَرِنِيٓ﴾، ورابعها: ضميرَا المخاطَب (أنت)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.

المستترانِ الفاعلانِ في ﴿أَرِنِيٓ﴾ و﴿أَنظُرۡ﴾. وخامسها: مفعولُ أرني الثاني المحذوفُ لدَلالَة الضمير المجرور عليه في قَوْله: ﴿إِلَيۡكَۖ﴾. وفي حشْدِ هذا الكمِّ من العناصر المحذوفة إشارةٌ إلى لهفةِ موسى، وشدَّةِ تشوُّقِه للقاءِ ربِّه، فاقتصد في الكلام، وأوجز توقًا إلى لُقْياهُ جلَّ في علاه.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثّاني من ﴿أَرِنِيٓ﴾:

المحذوفُ معلومٌ، والاستغناءُ بالمذكورِ عنه زيادةٌ في التأدُّبِ مع الله سُبحانَه

تقديرُ الحذف: أرني ذاتك أنظُرْ إليك، يعني مكِّنّي من رؤيتِك بأن تتجلَّى لي حتى أراك[1]. أو: أرني نَفسَكَ، وإنَّما حذفَ مبالغةً في الأدب، حيثُ لم يواجِهْهُ بالتَّصْريح بالمفعول[2].كأنَّه يعلمُ أنَّه بطبيعةِ تكوينِه يعرف أنَّه لا يمكن أن يرى اللّه، لكن إن أراه اللّه، فهذا أمرٌ بمشيئة الحَقِّ، وقدَّم موسى الطَّلبَ معلَّقًا بمشيئةِ اللّه وإرادته؛ لأنَّه يعلم أنَّه غيرُ مُعَدٍّ لاستقبال رؤيةِ اللّهِ؛ لأنَّ تكوينَهُ لا يقوى على ذلك[3]. ولذلك حذفَ المفعولَ الثاني، ولم يصرِّحْ به؛ لأنَّه معلومٌ، وزيادةٌ في التأدُّب مع الخالق (ﷻ)[4].

دَلالةُ جُملةِ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۖ﴾:

كمالُ أدبِ موسَى عليه السلام في طلبه الرُّؤْيَةَ الّتي تَليقُ بذاتِ الله تعالى

ولا شكَّ في أنَّ موسى عليه السلام قد سأل رؤيةً تليق بذات اللّه تعالى، بما اتَّصَفَ به من آداب النّبوَّةِ التّي رفعته إلى هذا المقام، وهي مثل الرُّؤْيَة الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسَبُ أنَّ مثلها ممكنٌ في الدّنيا، حتى أعلمَهُ اللّهُ تعالى بأنَّ ذلك غيرُ واقعٍ في الدّنيا، ولا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشّؤون الإلهيّة قبل أن يُعلمها اللّهُ إيَّاه، وقد قال اللّه لرسوله محمَّد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][5].

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/602.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/301.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4342.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بَلاغةُ تقْديمِ ﴿رَبِّ﴾ على فعْلِ الرُّؤْيَةِ:

في تقديم لفظ ﴿رَبِّ﴾ على قَوْله: ﴿أَرِنِيٓ﴾ تأدُّبٌ في الخطاب معتادٌ من أنبياء الله - عليهم الصَّلَاة والسَّلَام - إذ بدا بذكره باللَّفظ الدَّالِّ على صفات الرُّبوبيَّةِ، المشتملة على التربية، والرعاية، والرحمة، والعطف[1].

تـــأدُّبٌ في الـخـطـابِ، وتـعـطُّـفٌ في الـعِـتـابِ، بـالـسّـمـاحِ بـالـكـلامِ دونَ الرُّؤيةِ

دَلالةُ تَكرارِ الرَّاءِ، في ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾:

حرفُ الرَّاء صوتٌ لثويٌّ مكرَّر مجهور، ويُنطقُ بتكرير ضربات اللّسان على اللّثة تكرارًا سريعًا؛ ولذلك سُمِّي حرف الرَّاء بالصّوت المكرَّر، وتَكرارهُ في هذه الجُمْلَة ثلاثَ مرَّاتٍ، في كلِّ لفظ منها مرَّةٌ واحدة يرسِّخ ما تقرَّر من قَصْديَّة حَشْدِ جَمْعِ المحذوفاتِ في الجُمْلَة من تعجُّل موسى عليه السلام ولهفته للقاء الله تعالى. يُزاد عليه أنَّ حرف الرَّاء شبيهٌ بالحركات، فعند النُّطق به يوجد نوعٌ من حريَّةِ الهواء بسبب الاتِّصال، والانفصال المكرَّرين، ويُحدثُ هذا لِصَوْتِ الرَّاء نوعًا من الوضوحِ السَّمعي، أقوى ممَّا يُحدث مع بقيَّة الأصوات الصَّامتة الأخرى، وممَّا يعزِّز هذا كونُه صوتًا جهوريًّا، ووضوحُ اللفظ وشدَّةُ بيانه بتكرار حرفٍ يحمل هذه الصفاتِ فيه أنسبُ لمقام التَّكْليم مع عظيم الشأن جلَّ وتعالى وتبارك.

نُـطـقُ الـرَّاءِ بتَكريرٍ، تعزيزٌ لـلـتّـشـوُّقِ والـلَّـهْـفـةِ، وأَنـسـبُ لمقامِ التَّكْليمِ معه سُبحانَه

دَلالةُ حرفِ الجرِّ المضافِ إلى كافِ الخطابِ:

أشار إلى عظمته سبحانه، وعلوُّ شأنِه علوُّ العظمة لا المسافةِ بالتَّعدية بحرف انتهاء الغاية ﴿إِلَيۡكَۖ﴾ بعد أنْ أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان، فقال: ﴿إِلَيۡكَۖ﴾، أي: فأراك[2].

بـيـانُ عـظـمَـتِـه سُبحانَه، وعُلوُّ شـأنِـه عُـلـوُّ العَظَمةِ

دَلالةُ أداةِ النَّصْبِ ﴿لَن﴾:

يستعمل ﴿لَن﴾ لتأبيدِ النَّفْي، ولتأكيد النَّفْي في المستقبل،

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/425.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.

وهما متقاربانِ، وقد اعتُرِضَ على كونها للتَّأبيد، فتنفي الرُّؤْيَةَ مطلقًا، ووجِّهَ على تعلُّقِ ذلك كلِّه بهذه الحياة المُعبَّر عنها بالأبد، فنفت ﴿لَن﴾ رؤية موسى ربَّه نفيًا لا طمعَ بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يَعْلَم أنَّ طِلْبَتَهُ مُتعذِّرةُ الحصول في الحياة الدنيا، فلا دلالة في هذا النَّفْي على استمراره في الدار الآخرة[1]. وقيل: إنَّ تأبيدها إضافيٌّ، أي: بالنسبة للدنيا، وفيها تعليلٌ لعدم قدرة موسى على الرُّؤْيَة[2].

نَفْيُ رُؤْيةِ موسَى ربَّه، نفيًا لا طَمَعَ بعدَهُ للسَّائلِ في الإلحاحِ والمراجَعةِ

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾:

قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يقل: (لن تنظر إليَّ) فيكون مطابقًا لقَوْله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ لأنَّ النظر لما كان مقدِّمةً للرُّؤية؛ كان المقصودُ هو الرُّؤْيَةَ لا النظر الذي لا رؤية معه[3]، فنفى الرُّؤْيَة لا مقدمتها، وهو (النظر)، الذي هو: التحديق بالعين[4]. وقَوْله: ﴿أَرِنِىٓ﴾ بمعنى: اجعلني متمكِّنًا من الرُّؤْيَة التي هي الإدراكُ علم أنَّ الطِّلْبة هي الرُّؤْيَة لا النظر الذي لا إدراك معه، فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ولم يقل: لن تنظر إلي[5].

النَّظرُ مقدِّمةٌ للرُّؤيةِ، والمقصودُ هو الرُّؤْيَةُ ذاتُها، لِتَضمُّنِها الإدراكَ

بَلاغةُ الاستِدراكِ بلفْظِ: ﴿وَلَٰكِنِ﴾:

الاستدراكُ المُستفادُ من ﴿وَلَٰكِنِ﴾ في قَوْله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ لرفع توهُّم المخاطبِ الاقتصارَ على نفي الرُّؤْيَة بدون تعليلٍ ولا إقناع، أو أنْ يتوهَّم أنَّ هذا المنعَ لغضبٍ على السَّائل ولمنقصةٍ فيه، فلذلك يعلم من حرف الاستدراك أنَّ بعض ما يتوهَّمه، سيُرفع، وذلك أنَّه أمرَهُ بالنَّظر إلى الجَبَل الذي هو فيه هل يثْبُت في مكانه، وهذا يُعْلَم منه أنَّ الجَبَل سيتوجَّه إليه شيء من شأن

رفعُ توهُّمِ الاقتِصارِ على نفْيِ الرُّؤْيَةِ، بدونِ تعليلٍ ولا إقناعٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4343.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/381.

الجلالِ الإلهي، وأنَّ قُوَّة الجَبَل لا تستقرُّ عند ذلك التَّوجُّهِ العظيم، فيعلم موسى أنَّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية، لو تجلَّى له شيءٌ من سُبُحات الله تعالى[1].

عَلَّةُ اتّصالِ الاسْتِدراكِ بما قبْلَه:

اسْتِعْظامُ الإقْدامِ على طلبِ الرُّؤْيَةِ في الحياةِ الدّنيا

لتعظيم أمر الرُّؤْيَة، وأنَّ أحَدًا لا يقوى على رؤية الله تعالى إلَّا إذَا قوَّاه اللهُ بمعونته وتأييده؛ ألا ترى أنَّهُ لَمَّا ظهر أثرُ التَّجلِّي والرُّؤْيَة للجبل اندكَّ؛ فدلَّ ذلك على تعظيمِ أمرِ الرُّؤْيَة[2]، والمعنى: لا تطلب النَّظرَ إلى مُمتَنَعٍ، ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجِفُ بك وبمن طلبت الرُّؤْيَةَ لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرُّؤْيَة؟ لتستعظمَ ما أقدمت عليه بما أريك من عِظَم أثره[3].وفي هذا الاستدراك تسليةٌ لموسى ﷺ وتلطُّفٌ معه في الخطاب، وتكريمٌ له[4].

وَجْهُ تعليقِ الشَّرطِ، بالحرفِ المشبَّهِ بالفعْلِ (إنْ):

عندَ نُدْرةِ وُقوعِ الشَّرطِ، أو تَعذُّرِه، تُستعملُ (إنْ)

علَّق الشَّرطَ بإنْ في قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾؛ لأنَّ الغالبَ استعمالُها في مقام ندرةِ وقوع الشَّرط أو التَّعريض بتعذُّرِه، ولَمَّا كان استقرارُ الجَبَل في مكانهِ معلومًا لله انتفاؤهُ؛ صحَّ تعليق الأمر المراد تعذُّر وقوعه عليه بقطْعِ النظر عن دليل الانتفاء[5].

نُكْتَةُ التَّعْبِير بأُسلوبِ التّعريضِ:

بيانُ لَونٍ منَ الكلامِ، نُظِمَ على أُسلوبٍ عجيبٍ

في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ تعريضٌ لتحقُّقِ الرُّؤْيَة؛ لوجود ما لا يكونُ من استقرارِ الجَبَل مكانه حتى يدكَّهُ دكًّا، ويسوِّيه بالأرض، وهذا كلامٌ أُدمجَ بعضُه في بعض، ونُظِمَ على أسلوبٍ عجيبٍ، وصوْغٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/154.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.

بديعٍ، مِلاكه: التخلُّصُ من النَّظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، وتثنية الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النَّظرِ على الشَّريطة في وجود الرُّؤْيَة، أي: قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[1]. وذلك إيذانٌ بأنَّ المقصودَ من نظرهِ إلى الجَبَل، أن يرى بيقينٍ عجزَ القُوَّةِ البشريَّة عن رؤيته تعالى.وليس قَوْله: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وعدًا بالرُّؤْيَة على الفرض؛ لأن سبقه بقَوْله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أزال طمَعَ السّائل في الرُّؤْيَة، ولكنَّه إيذانٌ بأنَّ المقصود من نظره إلى الجَبَل أن يرى رأيَ اليقين، عجز القُوَّة البشريّة عن رؤية الله تعالى بالأحرى، من عدم ثبات قُوَّة الجَبَل، فصارت قُوَّة الكلام: أنَّ الجَبَل لا يستقرُّ مكانه من التَّجلِّي الّذي يحصل عليه، فلست أنت بالذي تراني؛ لأنَّك لا تستطيع ذلك، فمنزلةُ الشَّرط هنا منزلةُ الشرط الامتناعي الحاصل بحرف (لو) بدلالة قرينة السابق[2]، ولذلك عدل عنِ استعمال السِّين للتَّعبير عن بُعد الرُّؤْيَة باللفظ الدالِّ على البُعْد ﴿فَسَوْفَ﴾[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بصِيغة التَّجلِّي، دون غيره:

الصّيغة المنتقاة، ذات دلالة تربط المعنى، بمدد النّور، وفيوضات التّجليّات

يكون التَّجلِّي، والانكشاف، والظّهور بالذّات، وبغير الذّات من صفةٍ، أو فعل يزول به اللَّبْس والخفاء، وفي صيغة التَّجلِّي ما ليس في صيغة الجلاء، والانجلاء من معنى التَّدريج والكثرةِ النّوعيّة أو الشّخصيّة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [اللّيل: 1 - 2] فاللَّيلُ يغشى النَّهارَ، ويستره، ثمّ يتجلَّى النّهار، ويظهر بالتّدريج، وفي الأحاديث أنَّ للرّبِّ تعالى تجلِّياتٍ مختلفةً[4].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عنِ التَّجلِّي على طريقِ المجازِ:

التَّجلِّي حقيقةُ الظُّهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازٌ، ولعلَّه

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/3813 - 82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.

أريدَ به إزالةُ الحوائلِ المعتادة التي جعلها اللّه حجابًا بين الموجودات الأرضية، وبين قوى الجبروت التي استأثرَ اللّهُ تعالى بتصريفها على مقاديرَ مضبوطةٍ ومتدرِّجة في عوالم مترتِّبة ترتيبًا يعلمه، وتلك الإزالةُ هي التي استعير لها التَّجلِّي المسندُ إلى اللّه تعالى تقريبًا للأفهام، فلمَّا اتَّصلتْ قُوَّةٌ ربانيَّة بالجَبَل تماثلُ اتِّصال الرُّؤْيَة؛ اندكَّ الجَبَل[1]، ولذلك صُعِقَ موسى من انْدكَاكِ الجَبَل لِعِلْمِهِ ﷺ أنَّه لو توجَّه ذلك التَّجَلِّي إليه؛ لانْتَثَرَ جسمُه فضاضًا[2].

التَّجلِّي إزالةُ الحوائلِ الّتي جعلَها اللهُ حِجابًا بين الموجوداتِ الأرضيَّةِ

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِلْجَبَلِ﴾:

اللّام في قَوْله: ﴿لِلْجَبَلِ﴾ للاختصاص، وبيَّن بها خصوصيَّتَهُ، وأنَّه تجلَّى قربُه، ولو عبَّر بـ(على) مثلًا؛ لكان أمرًا آخرَ، أي: بأنْ كشفَ للجَبل عمَّا شاء مِن حُجُبِ عظمَتِهِ[3].

القُربُ والخصوصيَّةُ، يُحدِّدان مدَى التّجلّي ودَلالتِه

نُكتةُ الإخبارِ عنِ الجَبَلِ بلفْظِ الدَّكِّ:

الدَّكُّ مصدرٌ، وهو الهدُّ وتفرُّق الأجزاء، كقَوْله ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 90]، وقد أخبرَ عن الجَبَل بأنَّه جُعِل دكًّا بصيغةِ التَّشديد للمبالغة في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاء، والمراد أنَّه مدكوك أي: مدقوق مهدوم[4]. فضلًا عن أنَّ قُوَّةَ الجبل وشدَّةَ ثباته تُحتِّمان انتقاءَ لفظٍ يناسبُ ذلك شدَّةً، وقُوَّةَ تأثيرٍ، قال الرَّاغب: "فلانٌ جبلٌ لا يتزحزح تصوُّرًا لمعنى الثَّبات فيه"[5]. فصِفةُ الجبلِ الثَّباتُ، والاستقرارُ، والرُّكودُ.

المبالغةُ في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاءِ، دليلٌ على شِدّةِ الفِعْلِ وهَوْلِه

بَلاغةُ التّشبيهِ البليغِ، في تَوْجيهِ قراءةِ ﴿دَكَّآءَ﴾:

قرأَ الجمهورُ ﴿دَكًّا﴾ بالتَّنوين، وقرأ الكسائيُّ، وحمزة، وخلف: ﴿دَكَّآءَ﴾ بمدٍّ بعد الكاف وتشديد الكاف[6]، والدَّكَّاءُ: الناقةُ التي لا

بين قراءتَيْ (دكًّا) و(دكّـاءَ)، تفنُّنٌ في الأداءِ البيانيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(5) الرّاغب، المفردات: (جبل).
(6) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/271.

سَنام لها، والأرض المستوية، فهو تشبيهٌ بليغٌ، أي: صارَ مكانُ الجبلِ كناقةٍ لا سَنام لها، والظَّاهرُ أنَّ ذلك الذي اندكَّ منه لم يرجع، ولعلَّ آثارَ ذلك الدَّكِّ ظاهرةٌ فيه إلى الآن[1]، فبين القراءتين تفنُّنٌ في الأداء البيانيِّ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالمَاضِي المشدَّدِ، والصِّفةِ المشبَّهةِ:

المبالغةُ في بيانِ حالِ موسَى عليه السلام إعظامًا لأمْرِ اللهِ

﴿وَخَرَّ﴾ فعلٌ ماضٍ مشدَّدٌ دالٌّ على شدَّة السُّقوط على الأرض، ﴿صَعِقًا﴾ مشتقٌّ من اسم الصاعقة، صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الهيجان، وعدم الثُّبوت، وعلى ما يُكره أمرُه مِن الشَّدائد، والمُعْسِراتِ، والأمورُ العارضة في الغالب الَّتي تحصل ويَسْرُعُ زوالها، وعُبِّر بها للمبالغة في بيان حال موسى عليه السلام عند النَّظر إلى الجَبَل، ورسَّخ معنى الهيجانِ، والاضطرابِ، والشِّدَّةِ التي انتابته مجيءُ الجُمْلَة فعليَّةً؛ لتدلَّ على عدم الثَّبات، والاستقرارِ، وفي ذلك قصْدٌ إلى إظهار إعظامِه تعالى أمرَ الرُّؤْيَة، بإرْجَافِ الجَبَل بطالبيها وجعْلِه دكًّا، وصعقهم، مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سبَّح ربَّه ملتجِئًا إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمةِ على لسانه، وقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إيثارُ التَّعْبِيرِ بالفعْلِ: ﴿وَخَرَّ﴾:

الـخـرُّ سُـقـوطٌ مصحوبٌ بصوتِ الـتَّـسـبـيـحِ، ولـلـه تَـخِـرُّ كـلُّ الموجوداتِ

معنى خرَّ: سقط سقوطًا يُسمع منه خريرٌ، واستعمالُ الخرِّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السقوط، وحصولُ الصَّوتِ منهُ بالتسبيحِ[3]. ولذلك فهو اللَّفظ المناسب لسياق الآية الكريمة بنصِّ الإشارة الى تسبيح موسى عليه السلام وكأنَّ التَّسبيح لازمَه لحظةَ تجلِّي اللهِ عزَّ وجلَّ.

دَلالةُ إظهارِ الحرفِ، وحذْفِه في السِّياقِ:

سُرعةُ الاعتذارِ والتَّوْبَةِ، من أسبابِ القَبولِ، ودواعِي الوصولِ

الفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد التَّرتيبَ، والتَّعقيب، والعَطف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/156، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/384.
(3) الرّاغب، المفردات: (خرّ).

من دون مهلةٍ. والإفاقةُ: رجوعُ الإدراك بعد زواله[1]. وعبَّرَ عن سرعة الاعتذار، والتَّوْبَة بحذف الحرف مع قَوْله: ﴿قَالَ﴾.

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بالمفعولِ المطلَقِ:

دلالـــةُ لـفـظِ التّسبيحِ، على التَّنزيهِ البليغِ لـلـه تـعـالى، والنِّسبةِ إليه

لفظ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: البراءة والتَّنزيهُ من مطلق السُّوْء، وهو منصوب على المَصْدَر، أَي: على المَفْعوليَّة المُطْلَقة، ونَصْبُه بفِعْلٍ مُضْمَر متروكٍ إظهارُه، تقديرُه: أُسبِّحُ اللّهَ سُبْحَانَه تَسْبِيحًا، ونُزِّلَ سُبْحَانَ مَنْزلةَ الفِعْل، وسَدَّ مَسدَّه، فجعل: السُّبحان، في موضع: التَّسبيح، كما قالوا: كفَّرتُ عن يميني تكْفيرًا، ثم جعل: الكُفْران، في موضع: التَّكفير، وفي ذلك دلالةٌ على التَّنزيه البليغ من جَميع ما لا يليقُ به ممَّا يُنْسَبُ إليه تَعَالَى اللّهُ عن ذلك[2]؛ وذلك أنَّ المَفْعُولَ المُطْلق أقْوى في الدَّلالة على الحَدَثِ من الفعل، وأبلغُ في بيانِ شدَّتِه.

إنْشاءُ الثَّناءِ على الله، والتَّنزيهُ عمَّا لا يليقُ به، دَيْدنُ النّبِيئينَ:

تَنزيهُ اللهِ تعالى مـن أن تَـقْـدِرَ أبصارُنا عليه؛ لأنّـه تـعـالى، لا تُدركُه الأبصارُ

وجاء ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ عوضًا عن فعله، أي: أسبِّحك، لبيان النوعِ، والتَّوْكيدِ، والتعجُّبِ، والاستغفارِ، وإنشاءِ ثناءٍ على اللّه، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيَّن له أنَّه لا يليق به سؤاله دون استئذانه، وتحقُّق إمكانه، كما قال تعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: 46][3]. وكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يُراد بها التنزيهُ للّهِ من حدث رؤيتِه تعالى، أي: تنزيهًا لك يا ربِّ أن يراك مخلوقُك؛ لأنَّ الرُّؤْيَةَ قدرةُ بصرٍ على مرئيٍّ، ومعنى: (رأيت الشَّيء)، أي: إنَّ عين البشر قد قدرت على الشَّيء، ولو أنَّنا نحن - المخلوقين - رأينا اللّه بقانون الضَّوء، فهذا يعني: أنَّ أبصارنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/353، والأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/207، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/499، وابن الأنباري، الزاهر: 1/51، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).

(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/94.

تقدِر على ربِّنا وهذا لا يمكن أبدًا؛ لأنَّ المقدورَ لا ينقلب قادرًا، والقادر لا ينقلب مقدورًا[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ التَّوْبَةِ بالفعْلِ المَاضِي:

المبالغةُ في تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وصِدْقِ وقوعِها

قَوْله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ إنشاءٌ لتوْبةٍ من العَوْدِ إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: 47]، وصيغة المَاضِي من قَوْله: ﴿تُبْتُ﴾ مستعملة في الإنشاء، فهي مستعملة في زمن الحال مثل صيغ العقود في قَوْلهم: بعتُ وزوَّجتُ؛ للمبالغة في تحقق التَّوْبَة، وصدق وقوعها[2].

وَجْهُ تخصيصِ التَّوْبَةِ بالله تعالى، وحذْفِ مُتعلَّقِها:

في التّوبةِ مزيدُ خُضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيدُ صدقِها، وعُمومِها

وخصَّصَ التَّوْبَةَ به تعالى دون غيره بإتْباع فعل التَّوْبَة بلفظة ﴿إِلَيْكَ﴾ مزيدَ خضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيد صدقها، ولذلك أضمرَ متعلَّق التَّوْبَة فتعمُّ، وتستغرق صنوفها، مع أنَّه قد قيل: إنَّه تاب عن إجرائه تلك المقالة العظيمة من غير إذن فيه من الله تعالى[3]، أو من الجراءة والإقدام على السؤال بغير إذن[4]، فلفظُ التَّوْبَة يحتمل الإطلاقَ، وهو أنسب في مقام الاستغفار، وطلب الصَّفح، والرِّضا.

دَلالةُ التَّعْبيرِ عن أوَّليَّةِ الإيمانِ على طريقِ المجازِ كنايةً:

التَّعبيرُ عن قُوَّةِ إيمانِه، والمبالغةِ في وصْفِه

وقَوْلهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أطلق الأول على المُبَادِر إلى الإيمان، وإطلاقه بهذا النظم مجازٌ شائع مساوٍ للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره: الكنايةُ عن قُوَّة إيمانه، وشدَّة يقينه، حتى إنَّه يُبادرُ إليه حين تردَّدَ غيرُه فيه، مبالغةً في وصف نفسه عليه السلام.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالَةٌ على ثبات الصِّفة فيه، وديمومتها،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4345.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.

وكأنَّ الإيمان صار وصفَه، ولَقبَه، أي: الإيمان باللّه وصفاته، كما يليق به، ولذلك شبَّه الوصف بأفعال السجايا، فلم يذكر له متعلَّقًا[1]. ورسَّخ هذا المعنى صوغُها بالجُمْلَة الاسميَّة الدالَّة على الثبوت والرسوخ، وافتتاحُ الجُمْلَة بضمير المتكلم﴿وَأَنَا۠﴾ تأكيدٌ لتوبته، وصدقِ مراده من تعبيره بأوَّليَّة الإيمان.

صـارَ الإيـمـانُ وصْفًا لـه ﷺ، ولَقبًا

مُناسبةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ الإيمانِ لما قبْلَهُ:

التَّعبير بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرُّؤْيَة؛ لأنَّ شرط الإيمان أنْ يكون بالغيب، وكلُّ هذا تبكيتٌ على قومه، وتبكيتٌ لهم في عبادتهم العِجْل وردعٌ لهم عن ذلك، وتنبيهٌ لهم على أنَّ الإلهيَّةَ مقرونةٌ بالعظمة والكِبَر، وهي بعيدة جدًّا عن ذواتِ الجِسَام لما يعلمُ سبحانه من أنَّهم سيكرِّرون عبادة الأصْنَام[2].

شَرطُ الإيمانِ أن يكونَ بالغيبِ، وهـو أنـسـبُ لعدمِ الرُّؤْيَةِ

وَجْهُ إظْهارِ لفْظِ موسَى ﷺ، وتَكْرارِهِ:

عُدِلَ بلفظ موسى إلى الإظهار في الآيتين الكريمتين، وتكرَّر أربع مرَّات؛ لما في مقام المواعدة، والتَّكْلِيم من تشريفٍ لا يُطاول، ولا يتأتَّى لأيِّ بشر، إلَّا من اصطفاه اللّهُ تعالى من نبيٍّ، أو رسولٍ، ولا شكَّ في أنَّ الإظهارَ المصحوبَ بالتكرار أنسبُ في مقام التَّشريف، والرِّفعة، والسُّموِّ.

الإظـهـارُ، والتّكرارُ أنسبُ في مـقـامِ الـتَّـشـريـفِ، والـرِّفـعـةِ، والسُّموِّ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّكُّ والدَّقُّ:

ذهب أغلبُ المفسِّرين إلى أنَّ الـ"الدَّكَّ والدَّقَّ أخوانِ"[3]، "والدَّكُّ والدَّقُّ واحدٌ، وهو تفتيت الشَّيء وَسَحْقُهُ، وقيل: تسويتُه بالأرض"[4].

الـدَّكُّ تـسـويـةٌ وانـعـدامٌ للأثرِ، وهـو أدَلُّ على شِـدَّةِ الـهـدْمِ، والدَّقُّ تهشيمٌ، وبقاءٌ لِفُتاتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/302.

إلا أنَّ بينهما فرقًا، تحريره في الآتي: الدَّقُّ: كلُّ شيءٍ كسرته قطعةً قطعةً، والدِّقاقُ: فُتات كلِّ شيءٍ دُقَّ[1]. فالدَّقُّ: الكسر والرضُّ في كل وَجه. وَقيل: هُوَ أَن تضرب الشَّيءَ بالشَّيء حَتَّى تهشِّمَه[2]. ويلزم الدَّقَّ والضغطَ الشديدَ دِقةُ سُمك الشَّيء أو تفتته أجرامًا دقيقة، أي بالغة الصِّغر، وكذلك يترتب على الضَّغط تفصِّي الحَبِّ من السَّنابل ونحوها[3]، وقد تقدَّم أنَّ معنى الدَّكِّ: جعْلُ الشَّيء مستويًا، فقَوْلهم: دكَّ التُّرَاب: كبسه وسوَّاه[4]. وهو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخلَ غائرًا، ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[5]. وبذا يكون الفارقُ بين اللَّفظين بقاءَ الأثر من انعدامِه، فالدَّقُّ يبقي أثرَ الشَّيء؛ لكونه يحيله بالضغط الشديد والطرق إلى فُتات، فليس شرطًا فيه استواء مادَّته، أمَّا الدَّكُّ فينعدم معه أثرُ الشَّيء بوصفه أصبح مستويًا متداخلًا سطحه مع ما حوله، وأسفل منه.

وجاء في تفسير المنار: إنَّ الفرق بين الدَّقِّ والدَّكِّ: أنَّ الدَّقَّ ما يخبط به الشَّيء ليتفتَّت، ويكون أجزاءً دقيقة، ومنه الدَّقِيقُ، وكان القمح في عصور البداوة الأولى يُدَقُّ بالحجارة، فيكون دقيقًا، ثم اهتدوا إلى الأَرْحِيَةِ التي تسحقُه وتطحنُه، وأما الدَّكُّ؛ فهو الهَدْم والخَبْط الذي يكون به الشَّيء المدكوك مستويًا، يقال: أرضٌ مدكوكة، وطريق مدكوكة، ودَكَّ الحفرة والرَّكيَّةَ (أي: البئرُ غيرُ المطويَّةِ) دفنها وطمَّها[6].

وبذا فاختيارُ الدَّكِّ دون الدَّقِّ أنسبُ للمقام؛ لكون الجبل استوى بالأرض، وصار مساويًا لما حولَهُ من الأرضِ المنبسطةِ، وهو أدلُّ على شدَّة الهدم، والزَّوالِ الذي أصابَ الجبلَ، وقُوَّةِ الحدث الذي لم يتحمَّلْهُ نبيُّ اللّٰه موسى عليه السلام فخرَّ مغشيًّا عليه من هول المشهد.

(1) الخليل، العين: (دق).
(2) ابن سيده، المحكم: (دقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دقق).
(4) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 9/109.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»